قراءة في كتابات سودانية

رحم الله محمود عثمان صالح وأسرته على تدشين مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي ، الذي صدر منه من الكتب ما يقارب المائة وخمسين كتابا يصب معظمها في أمر الثقافة السودانية – ولابد أن نحي كل من يعمل في أمر نشر الكتاب ، في هذا الوقت الصعب ، الذي ما عاد الناس يتذكرون فيه عالم الكتب ، ونحيّ الأستاذ عبدالرحيم مكاوي الذي ظل لأكثر من خمسين عاما يعمل في نشر الكتاب من القضارف إلى الخرطوم وتأسيس الدار السودانية للكتب عام 1968 والتي أصبحت مكتبة شامخة ومبني من اربع طوابق ، لو أنه قام بتأجيره كمكاتب لكان العائد ذهبا ولكنه آثر الرسالة ونشر الكتاب وكذلك نحي جهود الآخرين كمكتبة مروي وعزة وسودان بوكشب ودار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر – وإذا خرجنا من الخرطوم نتذكر مكتبة مضوي .

بين يدي كتاب الأستاذ الدكتور عبدالرحيم سالم ، أسرار سواكن ، تراث يفهمه الغريب ويجهله القريب – وهو من إصدارات مركز عبدالكريم ميرغني ويقع الكتاب في 322صفحة من القطع المتوسطة ، وقدم له كل من المرحوم محمود عثمان صالح والاستاذ عبدالكريم الكابلي .

ويدور الكتاب حول قصة حب ما بين الكاتب وسواكن التي ابتدأت علاقاته بها منذ أن كان طالبا في المرحلة الثانوية (1953) وظل في حبه وتعلقه بسواكن ، كمشروع ثقافي / حضاري / اقتصادي / اجتماعي ، سياسي ، حتي انتهت به الأمر إلى أن بحوثه لدرجة الأستاذية كانت عن سواكن .

ويعطي الكاتب لمحات سريعة عن سواكن ، ميناء السودان القديم ، ويبرز خريطتها كجزيرة ومساحتها التي هي 135.000 متر مكعب أي حوالي 34 فدان.

ويتلخص مشروع سالم في صيانة المباني الموجودة ، هل تبقي منها شيء! علي الأخص ، المسجدين الحنفي والشافعي ، والمباني التاريخية والتي بذل جهدا خرافيا كمهندس معماري في اعادة رسمها ، كما ركز على الاهتمام بالشاطيء والكورنيش والنظافة وإقامة متحف ومكتبة تضمن ما تيسر جمعه عن سواكن بكل اللغات ، ويشترط أن يقوم كل ذلك علي أحياء تراث سواكن المعماري ، باعتباره إنجازا حضاريا متميزا ، يعكس ثقافة البحر الأحمر المعمارية في طابعها السواكني كما يتعرض لمشاكل البنية التحتية ، من ندرة الماء العذب والخدمات المعنية كالكهرباء وغيرها ، ومع إنه مهندس معماري ، إلا أنه يأبي الآن ليشع لمشروعه بفذلكة تاريخية حيث يشير إلى أن سواكن قديمة وشهدت عصور حتشبسوت (939 ق .م) ومملكة سبأ – وسيدنا سليمان وانتهاء بزيارة ابن بطوطة 1330م وعبوره منها لجدة .

وبعد محاولاته الرسمية ومبادراته الشعبية لترجمة مشروعه ، في لغة حزينة متوهما بأن هناك من يتربص بمشروع احياء سواكن وإلا فلماذا الإهمال والتجاهل ؟ ولكنه يحبب على تساؤله بنفسه ، فكما انهار السودان القديم ، ممثلا في مشروع الجزيرة والخطوط الجوية والبحرية والخدمة المدنية ، تنهار سواكن حجرا حجرا ، ويوما بعد يوم– وهو غير مكترث ببعض المنشآت الحديثة التي تنبت بطريقة عشوائية في جزيرة سواكن لأحيائها لخدمات الميناء ، لأن ذلك يجهض مشروع الإحياء المعماري لمعمار سواكن ونمطها الفريد ويعجل بدفن تاريخها المعماري والفني بدلالاته الحضارية والروحية وتميزه على شاطيء البحر الأحمر.

ومهما يكن من تشاؤمه إلا أن خروج هذا العمل في كتاب وفيه كل مطلوبات المشروع سيأتي اليوم الذي سيتم فيه تنفيذ المشروع سواء تم ذلك عبر مواخاة سواكن بمدينة عالمية أو مدينة خليجية أو ضمن مشروع احياء الشرق أو استدعاء الهيئات الدولية أو النفير المحلي .

وبما أن كل كتاب يثير بعض الاسئلة ، فقد سألت يا تري هل ثمة صلة بين ما ورد في القرآن الكريم عن مملكة سبأ بجنتيها عن يمين وشمال وملكتها التي خاطبها سيدنا سليمان – ورحلات سفن حتشبسوت خصوصا أن الفترة متقاربة إذ كل ذلك في القرن العاشر قبل الميلادي ، ومن إشكالات الخيال الإنساني المعاصر ، إنه أحيانا يتعلق بالإشكال المعاصرة ، وإلا فإن ذلك الزمان لم يعرف القواطع المسماة بالحدود السياسية – فلو تخيلنا مملكة سبأ تمتد على شاطيء البحر الأحمر ومنظمة اليمن الحالية وكوش التي تضم مملكة نبتة أو مروي وأكسوم (فإن سواكن قد تكون أحد الموانيء المهمة لهذه المملكة على البحر الأحمر) بينما مملكة سيدنا سليمان تمتد من القدس خاصة الشام ومصر وتتصافح المملكتان في مياه البحر الأحمر – وهذا يقود لإشكالات هجرة الصحابة وإلي أين كانت علما بأن اقرب ميناء لميناء الشعبية التي هاجر منها الصحابة رضوان الله عليهم هي سواكن – وكل ذلك يحتاج لمراجعات وحفريات وخيال وتخمسين وحدس .

والله أعلم والسلام .

أ.د. حسن مكي محمد أحمد